

عود إلى حديث الانسانية!

[إلى أخى الأستاذ على الطنطاوى]

للأستاذ عبد المنعم خلاف

—»»»»»—

كل ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية الفاسدة الشديدة الفساد الآن تحمل كثيرين على عدم الثقة بالإنسان وسوء الاعتقاد فيه ، فليست قمعتك التى أهديتها إلى فى المدد الماضى يا أخى شيئا مذكورا بجوار القصص التى تمثلها الجرائم السياسية الكبرى التى يمرضها شيوخ السياسة على مسرح الأرض ، ولا بجوار الحزاة السامية المجرمة التى تمثلها الصهيونية ، وتنصرها الولايات المتحدة الأمريكية ! — تلك التى كانت أمل العالم قطواها الشيطان فى جناحه الأسود فيما طوى من آمال السلام والخير — وتنضى عنها الامبراطورية البريطانية إغصاء الدليل الضعيف ، وهى التى خرجت منصورة من حرب كادت تودى بها ، أعلنتها ، وكان من أسباب إعلانها لها الانتصار لليهودية المضطهدة على يد النازية !

أجل ، ليست المسألة فى الحكم على الإنسانية بأنها للخير أو للبور مسالة قسوة فرد أو جريئة شخص ، فإن فساد الأفراد وبخاصة فى عصور الانحطاط ، يكون من الكثرة بحيث لا يحميه العاد . ولكن هل معنى ذلك أن نستسلم للواقع السيئ ونحطم عقائدنا فى الخير والصلاح ونلق سلاح كفاحنا لها ؟

وقد كانت صيحتى « أومن بالإنسان » فى إبان الحرب الأخيرة ردا لهجوم عنيف على قلبى من موجات التشاؤم والسخط

ولذلك لم يصبح النقد عن الفرنج فناً مستقلاً له قواعده ومذاهبه إلا فى القرن التاسع عشر بعد أن ارتقى علم النفس وانتشر وازدهر . ومنذ ذلك الحين تابع رقيه حتى بلغ أوجه وأدرك تمامه ، فأثر فى فنون الأدب أبلغ التأثير ، وعدل فى بعض أنواعها كل التعديل فإذا أضفت إلى الأمور النخمة التى تقدمت ، هذا الأمر السادس وهو جهل التقدماء بعلم النفس كما كان يجهله غيرهم ، اجتمعت لديك الأسباب التى أدت إلى ضعف النقد عند العرب ، والتأثير التى أحدثت هذا النقص البادى فى تاريخ الأدب

محرمين والزيات

والتعبرم من ذلك المجتمع الإنسانى الذى اشتعل بالحقد والقسوة والكفر بالقيم العليا للحياة الإنسانية فدمر كل شئ ، وكفر بكل شئ . لأنه فارغ الفؤاد من العقائد السامية فى الإنسان وفى الله خالق هذا الإنسان ومكرمه !

وكانت الفكرة التى تسلسل الحديث بها فى هذا الموضوع إنعاشى قرار بنفسى وعقائدها السامية فى حياتى الشخصية وحياة النوع الذى أتسبب إليه .

وعندما يطعم طوفان الفساد لا تجد النفس ماصماً منه إلا بالاجوء إلى سخرة الإيمان بتلك القيم العليا التى تعمر الوجود ، ولا تطمئن النفس إلى الحياة إلا إذا ظلت لهذه القيم قداستها وهيتها . فإذا رأيت المدن والمابد والشيوخ والأطفال والمجزة والماهد ، وكل ما قامت عليه الحضارة الإنسانية من القداسات والحرمات تذكى يد الحرب المجنونة الفاجرة ، فلى العذر أن أتمس لنفسى ولبن شاء من الناس أقفا أرى فيه تأويل هذه الظواهر الفاسدة والجرائم المنكرة كى أوفق بين عقائدى الدينية فى إرادة الله بالناس الخير مهما بدا هذا الخير ملفوفا بالشر ، وبين سير الحياة بالأحياء ... وإلا فقد عرضت نفسى لما تعرض له بعض من كتب إلى منذ حين يقول إن الحياة الإنسانية لغير غاية ، وإن الله — تعالى — قد قامت عليه الغاية من خلق هذا النوع فقد خلقهم لعبادته ، فلم يعبد منهم إلا الأقل !

على أن كل ما ضاعف فى الناس فعل الشر وسلبهم الاعتقاد فى الخير هو ذلك اليأس من الخير ، وذلك الاعتقاد بأن الشر هو الغالب على الطبع البشرى ، وذئوع هذا الاعتقاد فى هؤلاء المحاربين المصريين ، هو الذى جعلهم يحاربون بروح التدمير وعدم الإبقاء على شئ ، وما دامت الحياة للشر فليخبطوا فيه خبط عشواء على نحو بيت المرمى :

وبصير الأقوام مثلى أعمى فهلوفى جندى تصادم !
أحد أمرين لا ثالث لهما : إما أن تؤمن بأن هذا النوع الإنسانى يمكن الإقلال من شره ، وإقامة حياته على مثل الدولة الإسلامية الأولى ، أو على مثل دول سكان الشمال من أوروبا الحالية ، وعندئذ نجد فى أنفسنا الزائم على الجهاد والصبر والكفاح فى هذا السبيل حتى نصل أو نقارب بحسب الطاقة وبحسب قوانين الدنيا ... وعندئذ يستمر سير الحضارة والإصلاح مطردا ويظل

الثرات الإنسانية المطبوعة السلوة التي سقطت وتلوثت لضعف
روابطها بفروع الشجرة الإنسانية ، ثم يحكم عليه كله لذلك ،
فتلك نظرة سطحية جزئية لا تليق بمن يحمل عقله ميزان حكم
على الكون ومرآة رصد لأعاجيبه التي لا تنفذ في حرب الخير
والشر ، وعراك الصلاح والفساد ، وصراع الموت والحياة ،
وقذف الحق على الباطل !

وإني أسأل أخى الطنطاوى : لماذا يفقد ثقته وإيمانه بالإنسانية
لأجل مثل من العقوق يقابله أمثال من البر بالآباء ؟ هل جميع
الأبناء مثل هذا الابن المارق ؟ ولماذا تألم قلبك من هذا المثل
الشرير ؟ أليس لأن قلبك ينكره ؟ إذا ففى قلوب الناس نوع
خير ينكر الشر ويضربه مثلاً ، ويكتبه قصة يشنع بها ويسمع
بصاحبها ، ويجد فى قلوب الناس مدى لألم قلبه ، لأن « البر
لا يبلى » . وما دام فى الإنسانية خير وشر فلم نياس منها ونزرى
بقيتها ؟ لماذا نحرق الحقل كله لتخلص من الزوان ؟ !

إن الأولى بنا أن نعتقد أن الإنسانية كمثل من النبات ، الأصل
فيه أن ينبت أكثره نباتاً حسناً ، ويؤتى أكله وثمره إذا تمهدهناه
بالسقى والرعاية والحراسة من الآفات والحشرات التي تعطيه
وتفسده وتجعل أكثره ينبت نباتاً سيئاً . ولا بد أن يكون فيه
المعوج بالطبيعة ولكنه لا يكون الأكثر فى العادة .

ولن يفقد الزارع أمله من الزرع إذا ما خاف حظه فى موسم
من المواسم فيئأس ويقول : إن هذا النوع من الزرع ملعون !
ولن أزرعه ، إلا إذا كان أحق .

ونحن الذين نعلم أن كل مولود يولد على الفطرة ثم تلحقه
عوامل التربية والبيئة فيتكيف بها ينبنى لنا أن نربص ونتوجه
بكل جهود الإصلاح إلى قلوب الطفولة منطقة النمو الإنسانى ،
ونجتهد أن تنبت نباتاً طيباً وعلى الله الباقي !

ذلك حديث أذكر به صديق بقضية الإنسانية والإيمان بها ،
وآثار ذلك وضده من النواحي العملية والاجتماعية .

غير أن للقضية وضماً آخر من الناحية الفلسفية قد تلخصته فى
تلك العبارة التي لا شك رآها الصديق فى كتابي عن القضية وهي :
« أومن بالإنسان لأومن بالكون ورب الكون ؟ قلن
يؤمن الفرد الإنسانى بهما إن لم يؤمن بنوعه ؛ لأن عقل الإنسان
هو المنظار الذي ندر كها به ، فإن أهبطنا قيمة الإنسان أهبطنا

الخير له دولة فى الحياة كما أن للشر دولة ، ولا ضير على العقائد أن
يبقى من الشر بقايا ما دام الخير هو القانون الحبيب للنفس تلوذ به
وتمتصم بعواصمه عند المواقف الفاصلة ... وإما أن نكفر بهذا
النوع ونهدر قيمة الخلقية ، وننفذ آمالنا فى أنه مخلوق لغايات
كريمة ، ولا نستمع لوصايا الأديان القويمة بالبر وحسن الخلق
والدعوة للخير والنصب على الشر ، وعندئذ فلنخلع قناع المدنية
عن وجوهنا وجوه الذئاب والخنازير والنمور ، ولنفضح كل
مواضع النفاق الاجتماعى ، ولنعلن بصراحة أن وصايا الأديان
أخاديع أو أغلوطات عظيمة من عبقریات التاريخ الكاذب
الدلس ، وأن الإنسانية يجب أن تتخذ لها فلسفات فردية لكل
فرد فى الأمة ، ولكل أمة فى الأمم يرمى فيها الفرد مصلحته
الخامسة ، والأمة مصلحتها الذاتية ، وتسمى كل أمة أن تكون
أربى من غيرها ، لأنه لا رحم ولا نسب بينها وبين غيرها ، وإنما
هى قطمان وحيوانات بشرية تسمى « لتعيش » فى أضيق حيز ،
وهو حيز « الذاتية » .

وأليست هذه الحياة التي وصفنا على هذا الفرض هى الحياة
التي تحياها الأمم وتشقى بها كل أمة وتدمر كل حضارة ؟ ! فإذا
أردنا أن نفر منها ، فلماذا لا نؤمن بفلسفة تناقضها وتحاربها ؟ !
وهل هذه الفلسفة إلا أن « تؤمن بالإنسانية الواحدة » . وأنهما
مخلوقة لغايات عليا ليست هذا النزاع على الذهب الأصفر والذهب
الأسود والفحم الأسود والفحم الأبيض « وإنما هى البحث عن
كلمات الله فى الطبيعة بحث طالب « العلم » لا طالب « الفائدة »
السادية وحدها ؟ .

وأليست هذه الغاية لو تحققت جدية بأن تشر الناس جميعاً
أنهم نوع واحد غريب الوضع فى هذا الكون ! لأنه وحده يفتح
أبواب الطبيعة باباً فباباً ، ويتدرج فى تسخير قواها درجة درجة
حتى وضع يده فى منابمها ، وحطم أسوار « الذرة » التي هى وحدة
بناء الكون السادى .

ذلك هو « الوضع الأميل » للإنسانية الذي يجب أن يرصدها
منه الراسدون ليعلموا أى كائن هذا الإنسان الذى يحملونه فى
أجسادهم ويبادلونه ماصح وما فسد من شأنه وشئونهم !

أما أنت يرصده راسد فى « ولد ماق » ، أو « وحش
الاسكندرية » أو « سفاح باريس » الأخير أو غير أولئك من